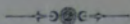


التربية الاجتماعية (١)



اخواني الاعزاء

لا بد أنكم قرأتم أموراً كثيرة عن ذلك الفيلسوف الانكليزي الشهير داروين . اصطدمت بخيلة هذا العالم الطبيعي صاحب الفكر الثاقب والنظر النافذ بمحادثة فجائية تبلمت امامه اينما حل وحيثما ذهب ، حادثة عامة وجددها تناول جميع ما يدخل تحت عنوان الحياة نباتاً كان ام حيواناً : تلك الحادثة ، كما تعلمونها هي التنازع على البقاء او بتعبير اخص من عزم على محافظة حياته وجب عليه ان يتجهز لرد طوارق المحدثان التي لا بد من ان يصطدم بها في كل آن

جاءت نظره تلك الحادثة العامة فابتدأ من ساعته يبحث عن دواعي ذلك النزاع والاسباب التي تؤدي لتقوية بعضهم وتفوقهم واضعاف الآخر وتقهقرهم . فمن جملة الاسباب التي وجددها ، الصبر على شدائد الطبيعة ، والتفوق من جهة الافتقار للمادي والمعنوي ، وتزايد النسل عند فروق أكثر من الآخر غير انه لم يقف عند هذا الحد بل واصل البحث والتنقيب حتى ظهر له بان نتيجة هذا النزاع الدائم بين العناصر الحية هو « بقاء الانسب في العالم » وان السيادة مع تقلب الازمان تبقى في ايدي اولي العزم والتدبير فوجد على التوالي الايام ان الضعيف يحكم عليه والقوي حاكم ، او بعبارة اقرب الى الحقيقة ، الضعيف يموت والقوي يسود .

فهذه حقيقة قد ابددها علماء كثيرون قبل داروين ، وسيف جملتهم الفيلسوف العربي الشهير ابن رشد فانه قال : (ليس للضعيف على مدى الازمان الاحزان ، اما ان يموت مذلولاً واما ان يتحلى باقوى منه فيكتسب صفاته وبذلك يتقوى فيسهل عليه النزاع في معامع الحياة) ولكن داروين ، ايها الاخوان ، لم يكتف

« ١ » محاضرة القاها محمد افندي حيدر من نوابغ سورية المتخرجين من كليتي الاستانة وباريز في المنتدى الادبي في ناسمة السلطنة يوم ١٤ كانون الاول ١٩١٢

بأثبات ما ذكرنا بل تدرج من القانون العمومي ، قانون بقاء الانسب ، وظهر
بنظرية المشهورة التي طالما تجاذبتها العقول وتشاحدت بها القرائح والاذهان وهي :
الارتقاء في العالم .

سردت لكم ايها الاخوان هذه العبارات ، لا لانني اريد شرح نظرية ذلك العالم
المدقق ، ولو اردت ذلك حقيقة لاضحكتكم حالي لعلمكم ان الوقت ضيق جداً وان
شرح تلك النظرية يتوقف على معرفة مسائل همة لا تدخل في موضوعنا كما اني
است بقادر على اثباتها ، وانما اردت ان اذكركم والذكرى تنفع ، ان الحياة ليست كما
يتوهمها كثير منا . فالطفل لدى خروجه من حجرامه يقع في ارتباك ظاهر لما
يتهاجم عليه من العوارض الكثيرة : فلمس يد توديه ولفحة قر توتر فيه . فيربو
وينمو بين حرص الطبيعة وصعوبة المعيشة وكلما تقدم في السن كثرت احتياجاته
وتراكت عليه المشاكل وتضاعفت على جانبيه الرقباء حتى اذا ما اراد شيئاً وجد
الوفاء من الموانع تزامحه

فهذه المنافسة او بالأحرى هذا النزاع والنزاح يتجلى بكل سعته وشدته عند
ما يخرج الانسان من المدرسة اذ يكون حينئذ قد قبض على زمام ارادته وافلت من
الحماية العائلية فيدخل اذ ذاك في حياة جديدة يطلب الرغيف والزاد متكللاً على
قوة ساعديه وقيمة كسبه فالوسط الذي يلجعه يجد فيه اناساً كثيرين يزاحمون على مرغوبه
ويحولون بينه وبين مطلوبه . وهناك الطامة الكبرى اذا لم يكن قادراً على دفع
المشكلات وازالة العثرات .

فحالة الام خصوصاً في وقتنا هذا لا تختلف عن حالة الافراد ان لم تكن اشد
وطأة واعظم خطراً . فالامة التي لا تنظر الى حقائق الامور بعين الاعتبار وتهمل
نفسها بمجاراة مجاورها في سبيل الرقي الادبي والمادي تسمي ولا شك متدهورة في
هاوية الدمار من حيث لا تشعر تختار الأسر وهو اشأم اصناف الانتحار وافظعه .
فلما انه يجب على كل امة ان تنظر الى عواقب الامور وتسعى بكل جهدها
وطاقتها وتستعمل جميع الوسائل لترقية ابنائها لا لتفقيتهم بصورة مطلقة اذ ان ذلك
لا يكفي ، بل لا يصلح الى درجة يقدر عليها ، بواسطة التعاون والتضامن بينهم ،
على الاحتفاظ بحريتهم وشخصيتهم لاجرم انكم تعلمون ايضاً ان بعض الامم في حالة
من الرقي تختلف درجاته غير ان الرقي الذي اقصد هو الرقي التسيبي ولا يبجل احد

منكم ان فرنسا تجتهد كل الاجتهاد لتزيد نفوسها ويحق لها ان تضطرب كل الاضطراب في الوقت الحاضر . او يننا ترى نفوسها تزداد مائة وثلاثة آلاف في خمس سنين اي من تاريخ ١٩٠٥ الى ١٩٠٩ فللمانيا قد ازدادت في الوقت نفسه ، بما يربو عن الاربعة ملايين ومائتين وسبعة واربعين الفا في حين ان انكلترا وعدد سكانها ٣٦ مليوناً ماعدا نفوس ايرلندا واسكتلندا قد ازدادت سنة ١٩٠٩ فقط بما يقدر باربعائة وثلاثة عشر الفا فالزيادة المطلقة التي وقعت في فرنسا في هذه المدة هو سبب ضعفها لعدم كفايته بالنسبة لجواربها فهذه الزيادة العظيمة في ألمانيا تدعوها ان تزيد عسكرها الى ٧٠٠ الف مقاتل في وقت السلم وان تتدخل في مسائل اغاير وغيرها مضطرة لاختتار وتحتل اصقاعاً جديدة لتعينها وقت الشدة

ذكرت لكم هذا المثل لالفت نظركم الى اننا في ضيق وان الوقت حرج جداً ومن ضيع الفرصة لا ينفعه ان يعرض اصابعه ويندم حيث لا ينفعه الندم . فيكتفي بمدح ماضيه ويعتديده امام المستقبل . فمن احب وطنه وعشقه حقيقة وجب عليه قبل كل شيء ان يصلح نفسه ويزينها بالعلوم العصرية ثم يفكر بان هناك امة لها عليه حقوق عديدة منها حق بقاءه فيجتهد اذ ذاك للقيام بواجبه نحوها وايصالها الى درجة الرقي والاسعاد ، درجة تمنحها حق البقاء بين الامم الحية

اخواني ؛ انظنوا بانني اعرض بالذين يقاخرون بماضيهم لاني اعتقد ان الانسان لا يمكنه لسلك سلم المعالي الا اذا عرف نفسه ومعرفته النفس لانتم الابعرفه الآباء والاجداد وما تركوا من الآثار . لان الانسان ليس ابن يومه بل ريب امه وان هناك سلسلة تربطه ، شاء ام ابى بالماضي . وما اصدق ما قاله الفيلسوف الشهير رنان « الامة موءلفة من امواتها اكثر من احيائها » فمن اراد خدمة امته كان جديراً بان يبحث عن ماضيها ويدرس تاريخها ويكشف التراب عن تلك الجذور التي تسنده في حياته دون ان يراها ثم يستعين بها لخدمة مبداءه وتعزيز غايته ، غير انني قصدت بقولي اذ ذاك من يتحسس مفخراً بقوميته مع انه يجهل اصلها وفروعها يجهل رجالها وآثارها ؛ قصدت بقولي من يصرخ دائماً ؛ امي ؛ امي ، كانت صاحبة علم ومجد ، صاحبة مدنية عظيمة ، اوليست هي مهد المدنية الغربية ؟ وكلها جهل مفخمة سمعها من رفيقه واكتفى بتردادها في كل محفل ومحضر دون ان يفكر بان الالفاظ لا قيمة لها اذا لم تستند على دلائل علمية وادلة حية

من احب امته فليبحث عن احوالها وآثارها وليتهد في تلخيص ما هو موافق من المدنية الغربية فيها . نحن العرب ، يقال عنا اننا اذكاء ، فلو سلمنا بهذه القضية اليس يجدر بنا ان نفهم الان اتنا في القرن العشرين ، قرن الجهاد المتمادي والسعي المتوالي وان الذكاء وحده لا يكفل للانسان حياته اذا لم يأخذ بالاسباب بارادة اشد من الحديد . نعم ان هذه الصفات سبعة المثال غير انه يجب على الانسان امام المصاعب ان لا يقنط ان الامة التي لا تعتمد على حالها وليس لها ثقة بافرادها تكون قد اساءت الظن بنفسها ومن اساء الظن بنفسه تدرج الى اليأس وهناك الطامة الكبرى اذ ليس بنتيجة اليأس الا الفتور والخمول .

فحينئذ يجب على كل امة ان تنتبه كالافراد لشخصيتها وتناهب الى يوم معلوم . يوم لا بد ان تختبط مع غيرها فيه فاذا كانت خبيرة متيقظة في امورها حازت قصب السباق والا وقعت كما هي حالتنا الان في هوة الدل والهوان .
تذكرون ولا ريب قول ذلك الحكيم الاجتماعي مونتكيو بحق القوة :
« القوة تجري الى ان تصادف مانعا فيصدها » فهذا القول ينطبق على جميع القوات طبيعية كانت ام اجتماعية . ليست لشكالات اوربا السياسية وتجمعها حول الانفاق والائتلاف مستندة على هذه النظرية وليس ضعفنا وتشتت شملنا هو الذي اطمع الحكومات البلقانية ان تزحف علينا بقواتها وترغب في ابتلاعنا . التساهل بالامور وحسن النية والائتكال على الغير امور لتبذة . لانهم اهيئة التناول ولكن وبالاأسف اننا نرى السياسة متلونة ولا تلون الحرباء لاثقة بها مطلقا . وما التساهل وحسن النية بالامور الا بلاهة ومسكنة .

كنت اظن اننا قد اعتبرنا بما قد اتي على رؤسنا من الدروس التي اوشكت ان تقضي علينا بثاناً ، كنت اظن انه لم يبق احد في المملكة العثمانية الا وقد اعتبر بما قد انتهت اليه سياستنا العنصرية التي بعثت قواها وكادت تفرق قلوبنا بعضها عن بعض ولكني وجدت وبالاأسف — بالرغم مما كنت آمل — منشأ يكتب الاسطر الآتية في جريدة تنتشر في العاصمة : « العناصر المختلفة التي تعيش في السلطنة العثمانية لا يمكنها ان يكون لها قوة نافذة بجانب المنصر التركي . منذ خمسة عصور ونحن عائشون تحت عنوان العثماني ، في القرن العشرين ينبغي ان نعيش تحت عنوان الترك ؟ »

لم اذكر لكم معشر الشبان الكرام هذه الامثلة الا على سبيل الاستطراء وليس جذيراً بالانسان ان يغالي بسوء الظن ، لان التسامح واجب والتعاقد ضروري خصوصاً في الهيئات الاجتماعية — غير انه ينبغي عليه ان لا يئمن الظن بمن لا يستحقه وان ينظر الى المستقبل بعين الدقة خصوصاً اذا كانت حياة امة في موضع البحث وان يعتمد على نفسه واجتهاده وعند الحاجة يكون مقتدرّاً على العمل بوصية الشاعر :

واذا بليت بظالم سكن ظالمًا * واذا لقيت ذوي العدالة فاعدل

اخواني الكرام ؛

اريد الآن ان اتكلم عن التربية الاجتماعية او بالاحرى عما تحتاج اليه التربية الديموقراطية . والذي دفعني لتفصيل البحث في هذا الموضوع ظاهر على ما اظن . لان هذا الفرع من التربية هو الذي شغل اكثر المفكرين لتناوله جميع الافراد وله في وقتنا الحالي مكانة عظيمة عند الامم الزاخرة

ان الوقت الذي كانت تسعد به الامم بحجي رجل ذي دهاء يتولى امورها قد قل حظه وسيدفن عن قريب بين صفحات التاريخ وان الدور الذي كان الامر فيه بيد شخص واحد يتصرف كيف يشاء قد مضى وانقضى وها نحن الان في زمن ، لصغير الفوم وكبيرهم حقوق يطالب بها ووظائف يدعى الى القيام عليها ؛ يشترك برأيه بهام الامور ويضع اسبعه في كل مسألة تتعلق بحياة امة وارثائها فن ثم وجب عليه ان يكون قادراً على تمييز الغث من السمين ليفيد الهيئة الاجتماعية التي ينتمي اليها بسعيه وعلمه . هذه المسألة من اهم المسائل الاجتماعية قد درتها الامم الغربية حتى قدرها وهي تشتغل ليلاً ونهاراً بتطبيقها ، بنشر العلم وتعميم الفائدة بين جميع ابنائها حتى يكون كل فرد مفيداً لامته برأيه وسعيه وعلمه وماله .

ان من الافراد من يعلقون آمالهم وترقية امتهم على حياة شخص واحد . ان الامة التي لا يمكنها ان تكون معجب الرجال والتي تعلق شقاءها وسعادتها على شخص واحد ليس لها حق ان تدخل في مصاف الامم الحية . الامة الحية هي من اذا فقدت بالمرستون اناها يكون سفيلاً ومن اذا اضاع يكون سفيلاً جاءها غلاستون ثم شام برلين ، فساليسوزي ، فبلسفور فاسكوييس من الرجال الدهاء والامة الحية هي التي تملك امثال هؤلاء الرجال ولا يهملها اذا سقط واحد فان هناك جماً غفيراً قادراً على ان يخلفه . فالروح الاساسية هي التي تأتي بالاعمال العالية هي روح الامة من حيث

المجموع ولا تظن ان يسارك كان يمكنه ان يفعل ما فعل و بوحد العنصر الجرماني تحت سيطرة واحدة لو لم يكن مستنداً على امة غذاؤها العلم والانتظام اعني بهما التربية المدرسية والروح العسكرية ولا تظن بان تيير الفرنسي كان يستطيع دفع الخسة مليارات ويخلص وطنه بمدة وجيزة لو لم يكن وراءه امة تعودت الاقتصاد وتأصلت فيها مزايا الاستثمار .

فحري بنا نحن ابناء العرب ان نقنني اذا اردنا لنفسنا حياة حرة أثر تلك الامم وان نبث روح التربية الديموقراطية بكل صقع من انحاء جزيرة العرب وسورية

ان الاختصاصيين في هذا الفن قد عرفوا التربية بصور عديدة فقد قال الفيلسوف الالماني (كانت) التربية تنمية الصفات الكمية في الانسان بقدر ما تستطيع طبيعته او بقدر ما يتعمل استعداداه . ونقول مادام نكورد دوسوسور وهي آنة اشتهرت بهذا الفن : " تربية الطفل ، هو ايضا الحالة بقدر بها ان يفي بوظائفه الحيوية بأحسن صورة : ، ويرى هربرت سبنسر ان التربية هي احضار الطفل للحياة الكاملة ؛ وعرفها جيمس ميل الفيلسوف الاميركاني هكذا : " المقصد من التربية جعل الطفل آلة سعادة لنفسه ولغيره "

وبعد فان جميع ما ذكرناه من التعاريف في التربية يتعلق بغايتها لا بذاتها ولا يتخلو احدها من الابهام . لانه اذا سئلنا ماهي الحياة الكاملة وما هي السعادة يصعب علينا ان نجواب جواباً شافياً لأن هذه الكلمات تدل على اشياء نسبية لا يمكن حصرها ثم فهمها . عرف جان جاك روسو التربية بذاتها فقال « التربية هي صنعة لتثنية الاطفال واعداد الرجال » فحسن هذا التعريف هو انه قصير ومختصر غير ان قصره المفرط ولد فيه نوعاً من الابهام .

ولذا ارجح التعريف الاتي وان كان مطلوباً غير انه يدل على المقصود ويؤلف بين التعاريف التي ذكرناها « التربية هي مجموع الاعمال المفكرة لمعاونة طبيعة الانسان في ترقية خصائصه الجسمية والعقلية والأخلاقية ، بقصد تكامله واسعاده وايفاء وظيفته الاجتماعية فهذا التعريف يحولوللانظار بان التربية ينبغي لها ان تنطبق على الصفات الثلاث المتمم بعضها بعضاً في الانسان وهي الصفة الجسمية والفكرية والأخلاقية .

استأذنكم ان اتبعكم في التربية الديمقراطية بما يتعلق بالمعلومات الاساسية والصفات الفكرية والارادية التي يجب ان تؤسس في عقل الطفل من حيث انه عضو فعال وان يكون بحسب بصورة خاصة في الولد الذي دخل مدرسة لتكامل ماعلمه لاجل ذلك خصصت بحسب التربية و تركت تربية الاسرة والتربية اللامدرسية (اذا صح التعبير) اي التربية الذاتية بعد الخروج من المدرسة . ولي بذلك مأرب بهم حياتنا العربية .

لا بد انكم اطلعت على بعض المقالات التي نشرت في المدة الاخيرة على صفحات الجرائد في دمشق تحت هذا العنوان المبادئ العالية فنوات المثالات على اثر انتشار المقالة الاولى حتى ظن انه يوجد اختلاف بين آراء الكتاب في هذا الشأن ولكن اختلاف لم يكن الا اختلافاً وهمياً لمن ادعى انه لاصلاح الاباصلاح الاسرة فقد نطق بالصواب لان العائلة على التحقيق هي اساس كل جمعية وقوامها . غير انه اذا سئل كيف تصلح الامرة ، فماذا يكون اذا الجواب ؟

ايتمكن الابوان ان يتوفرا على تربية ابنهما او بنتهما مع انهما لا يفقهان ماهي التربية وما معناها ، وهل يكفي ان يلحق الآباء والامهات معنى التربية بواسطة المحاضرات والمؤلفات والجرائد وهل هم يحسنون القراءة واذا قرؤا وتوصلا لفهم معنى التربية هل يتمكنون من تطبيقها وهل يمكن ان تغير طبائعهم وعاداتهم بعد ان وصلوا الى تلك السن ونعلمهم الثبات والدوام في العمل لاجل ان يتييسر لهم اقتطاف الثمرات ام يمكن ان ندخل البهوت ونأخذ النفس بتربية الاطفال . كل هذا وهم باطل اذا فلتوجه انظارنا الى المدارس لان هناك آمالتنا وهناك مستقبلنا هناك يمكننا ان نؤثر في الطفل ونغرس فيه بقدر الامكان بعض الطباع الحسنة ونعلمه الثبات والمضاء انني لا انكر مالمؤلفات والمحاضرات من الخدم العظيمة بهذا الشأن كما انني اعتقد ان تلك الخدم بالرغم من مكانتها ثانوية بالنسبة لتربية امة كامة .

قلت ان الكتب هو الذي يجب ان يكون المبدأ لتربيتنا : لان الولد الذي يتيسر له نيل تربية حقيقية في المدرسة يمكنه ان يؤثر في اصلاح أسرته وان يكون سبباً لاسعاد اولاده وترقية امة في المستقبل . ولكن من لنا بأن يربي تلك التربية التي اشرنا اليها في مدارسنا . أولئك الرجال الذين يعلمون فيها الآن ؟ فكيف بنا ذهولاً واسمحوا لي بأن اهتف الى الغرب الغرب .

لنرجع الى موضوعنا اي الى كيفية المعلومات الاساسية والصفات التي تتعلق بالفكر والارادة والتي يجب على المعلم ان يلقنها تلميذه بصفة عضو من اعضاء هيئة اجتماعية ديموقراطية ولذا فلنبدا بالتربية العقلية لان التربية الجسمية المدرسية وضررها معلوم عند الجميع .

قلت فلنبدا بالتربية الفكرية لان الطبيعة الاخلاقية في الرجل وان كانت هي التي تعطيه القوة اللازمة لفتح المصاعب غير ان الذكاء هو الذي يبين طريقها ويعين لها وظيفتها

وعليه فالتربية يجب ان يكون اساسها العلم وان تستند في جميع اوقاتها على مكتشفاته واصوله الثابتة . لاننا في قرن الحقائق العلمية، والخرافات الناشئة عن الجهل ، التي تدرس في مدارسنا بدون ان يشعر بها المعلم هي لانفة بعصر كانت للخرافات والتخريفات فيه حظ ومجال . فالعقل البشري في عصرنا هذا خاصة لا يطاق في سهولة امام البدهة العلمية

ولكن ماذا يفهم من قولنا بأن العلم يجب ان يكون روح التربية الفكرية في مجمع ديموقراطي ؟

هل يمكننا ان نطلب من الخلق بان يملكو كلهم فنون العلم بحذافيرها ويشملوا بها . كلا ! فان ذلك لا يدخل تحت دائرة الامكان . وحيث ان الجمعية مرتبة من اعضاء مختلفين في استعداداتهم وطبائعهم فقسم منهم بطبيعة الحال يبرع مثلاً بالعلوم الاجتماعية وآخر بالعلوم الرياضية وآخر بالتجارة والصنائع والزراعة . الخ . وعلى كل منهم ان يكون عالماً في صنعة امرأ كان او مأموراً وما العالم الا من اخصى في شعبة من شعب الفنون الحاضرة فعليه ليس المقصد ، كما قال رنان ، ان يكون كل الافراد علماء بل المقصد ان يشترك الكل بشعرات العلم او بعبارة اجمل كما قال نوسيديد ليس المقصد ان يكون فرد قادراً على حل كل المعادلة بل يكفي ان يقتدر على ادراك النتيجة من حلها

فعليه ماذا يترتب لاستحصال هذه النتيجة العامة التي يجب ان تشمل الجميع بدون استثناء ؟ او بعبارة اخص ووضح ماهي الامور الضرورية التي يلزم نشرها بين جميع ابناء العرب تلك الامور ثلاثة . اولاً نشر الحد الاصغر من المعارف الاساسية بين جميع ابناء الناطقين بالضاد ثانياً تأسيس عادات فكرية حسنة

ثالثاً نشر بعض المعلومات العامة التي تتعلق بالكتشفات الفنية الحد الاصغر الذي يجب نشره من المعارف لا يمكن تحديده بصورة قطعية ، لانه يتغير بتغير الاحوال والاستعدادات فمنهم من يبرعون ومنهم من يتأخرون غير ان القاعدة العامة هو ان يبدأ بنشر المعلومات الابتدائية التي هي بمثابة الآلات الضرورية لترقية الفكر في المستقبل كالقراءة والكتابة وبعض قواعد اللسان العربي والحساب . بالإضافة بعض المعلومات التي تتعلق بالتاريخ وبما يحيط بالإنسان اذ لابد منها لمعرفة الماضي والحال واثارة طرق المستقبل فأذا شئت هذه المعلومات الابتدائية بصورة مختصرة معقولة وبواسطة المدارس على الاخص تمكن الرجل من ان يوسع معارفه فيما بعد بدرس المؤلفات وسماع المحاضرات هذا اذا لم يدخل في احدى المدارس العليا ولم يساعده الحظ على اتمام عقبات التعليم .

غير ان المقصد الاساسي من تلقين هذه المعلومات الابتدائية يلزم ان ينصرف لتأسيس عادات وطباع فكرية حسنة بحيث يكون الرجل صاحب فكر سليم في جميع افعاله ومحاكماته وان يعود فهم الحقائق بدون ان يتخدع بالظواهر وان يرى ، كما قال المسيو الفرد كروازي ، مديركلية العلوم الادبية بباريس ، من وراء الكلمات المعاني ، ومن وراء المعاني ، الاشياء بذاتها . المقصد من المعرفة ان يستطيع الانسان فهم الحقائق والحكم على الاشياء لا يتيسر الا بالاطلاع على كنهها ومعرفة التوازن التي تدار بها .

سلامة الفكر تقتضي نفوذ النظر وشدة الثبات لنيل المقصد والذي يجب ان يولد عند الطفل الميل لمعرفة الحقائق لاجل ان يستخدمها ، يجب كما يقول ديكارت الفيلسوف ، ان تمتثل بالاشياء بدلا من ان تقودها بميوئنا الهوائية . الطبيعة لا تتقادم . يغضب عليها بحقق وجهالة ، لان الغضب وسواء عندها سواء . وما ذا ياترى ، نفع كيكاكوس عند ما اخذ السوط بيده وجلده به البحر ليؤدبه على هيجانه امامه . فعليه يجب علينا ان نعود الطفل النظر في الاشياء بعين البصيرة والتروي وان نولد عنده طبيعة البحث عن حقائق الامور والمثابرة على العمل لئلا يذبح ثمراته .

قلت ان المثابرة على العمل والبحث ضرور بان لكل شخص اذا اراد ان يتمتع بثمرات حياته وانا وبالاسف معاشر ابناء الشرق واخص ابناء العرب تنقصنا هذه الفضيلة الاجتماعية ؟ لان لذة التحصيل ومعنى الحياة لم تمازج ارواحنا . فالذي يخرج منا

من احدى المدارس العالية يعد نفسه انه وصل الى منتهى الكمال في العلم ؟ فيعتقد يديه و يتدد على سريره كأنه بلغ الغاية القصوى . هذه حالتنا الآن وهذه حالتنا من زمن ليس بقریب . درس كلوت بك احد المستشرقين اخلاق العرب على عهد محمد علي باشا الكبير بمصر وسورية فامتدح منهم وأعجب بذكائهم وسرعة انتقاهم وقال انهم لا يقصرون عن ابناء الغرب شيئاً غير انهم يملون بسرعة ولا يدومون العمل بصورة جديدة

فهذه الخصلة ، ايها الاخوان ، من العس النقائص الاجتماعية في زمننا هذا ولقد ثبت ان الالمان لم ينجحوا و يبرزوا اكثر الامم الا لان هذه الصفة قد امتزجت بطباعهم وقبضوا عليها اكثر من غيرهم . فيمكننا نحن العرب ، والامثال عديدة احتذاء مثال الناهضين بان نعطي للحياة حقها ونخلق بهذه الصفة الضرورية لنا اذا اردنا ان نخدم انفسنا ونقوم بامتنا

بقي عليّ ان اقول كلمة في القسم الثالث الا وهي الافكار العامة التي يجب ان تلقن للطفل في صغره . اول شيء يمكننا ان نعلمه للطفل ان يعرف شخصه ومن هو والى اي أسرة ينتمي ، وباي لسان امة ينطق ومن هي تلك الامة التي يرتبط بها بعاداته وطباعه ثم تنتقل به الى الامم الاخرى بحيث تدخل في ذهنه النقطة الاساسية وهي الفرق بين الماضي والحاضر فنشأ له بذلك فكرة عامة وهي فكرة الرقي الدائم في العالم . يلزم ان يعرف ان العالم لا يتبع الاهواء والا هواية في تقلباته ودورانه بل هناك نظام وقوانين يدار بها ويخضع لها لا بد انكم توهمتم بعظم هذه التعابير التي ذكرتها كالرقي الدائم والنظام في العالم ، وسألتم انفسكم كيف يمكن تلقين ولد . حديث السن فهم هذه الحقائق العالية ولربما ضحك بعضكم في سره من هذا الفكر نعم ليس المقصد ان يدخل المعلم في تفاصيل هذه المسائل لانه يستحيل عليه افهامها كلها للطفل ولكن يمكنه ابدآ ان يوضح ما اثرنا اليه بيان الخطوط الاولى فقط المدونة في النواحي والكتب الاجتماعية . وتلك وجه الاستدلال اريد ان اقول لكم عبارة للمؤرخ العالم الكبير المسيو لافيس احد اعضاء الجمعية العلمية بباريس قال : « ان التقلبات التي انت على الانسانية مرئية محسوسة ولا حاجة للانسان ان يكون عالماً شحيراً أو فيلسوفاً كبيراً ليشعك من الوقوف على سرير الروح البشرية التي تقلبت بين الاعصر الغائرة ليكشف المعلم بتفهيم شروط الحياة بين الادوار المهمة فقط وليقل

مثلاً أن الانجيل يفرق ما بين كليشمستر لاشيل واتالي لرسين والحروب الصليبية و بين اشيل والسيد والصليب بين افلاطون و پاسكال و بين الفروق الاساسية بين القسمين فعندها يحس الولد من نفسه بأنه منقاد بتاريخ الانسانية على الدوام . وفي الوقت نفسه يقوده معلم التاريخ من الجمعيات الابتدائية الى ان يوصله الى الجمعيات الحاضرة بشرط ان يوقفه على الاصول ويحمل مادون ذلك من الفروع .

و بدعي انه لا يمكن استحصال هذه الشروط ولا يتيسر توسيع الفكرة وانارة الذهن اذا لم يكن هناك حرية فكرية مطلقة . فالحرية هي غذاء الفكر وقوامه و بدونها يصبح الفكر كالمضو المعطل عن الحركة فبعد ان يمضي عليه مدة من الزمن يتحضر ثم يعجز عن الاتيان بعمل واحد احب ان اذكر لكم هذه الامثلة التاريخية بهذا الشأن .

دخلت الدوجة دورليان ذات يوم سنة ١٨٤٢ ومعهما ولدها على فيكتور هوجو وسأله ماذا يجب ان تعلم ولدها فقال لها : يجب ان تعلميه ان فرنسا تقيد العالم بأسره وان الذكاء يقيدها . ماذا كان القصد من هذا الجواب ياترى ؟ القصد ، هو انه اذا ساعد الحظ ابنتها الدوج دي باري وجلس على سرير السلطنة بعد والده لوي فيليب ، يعرف ان الفكر حاكم على كل شيء وان مراعاته واجبة حتى على المسلك فبالحقيقة لا يتف شيء امام الانسان اذا كان متبصراً مستنداً على حرية الفكر وقوة الارادة .

وهاء نذا اختم حديثي بكلمات عن الثريية الاخلاقية الاجتماعية فاقول :
تعرفون ولا بد ان قسماً من الاخلاق قد تكون على مدى الازمان وسير الايام بصورة قطعية فالمذاهب والاديان العالية كلها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر مثل : يلزم عليك ان تطيع والديك وتعين جارك وتحافظ على حرماتك وتصبر على الاحن والالام وتفتش على السعادة باكتساب الفضائل فهذه الاحكام هي احكام ثابتة ، تتعلق بغايات عالية وبمقاصد شريفة . غير ان هناك صفات أخرى من الاخلاق بالنسبة الى التشكلات الاجتماعية الحاضرة يجب ان تضاف الى القسم الاول وان ترسخ في عقول الاطفال وهذه الصفات تدعى بالاخلاق المدنية فاريد ان اجعلها كلتي الاخيرة .

المقصد من الاخلاق المدنية مزدوج فمن جهة ، هو توليد فسر الاستقلال

الشخصي في الطفل وجعله قادراً على ان يأتي باعمال شخصية مثمرة ؛ ومن الجهة الاخرى السقاء حسن التأليف بين الاعمال واستقلال الارادة وسوقها الى هدف معين . فالمراد من الاول هو الشخص ومن الثاني الجمعية . فالاول يقوي الفرد على السعي والعمل والثاني يحمله على اشراك مساعيه مع غيره فنقول بذلك لتأمين منفعة الشخص ومنفعة الهيئة الاجتماعية معاً . ولا شك بأنه يتيسر للامة رقيها ونجاحها اذا كان الافراد اقوياء مقدمين على فكر التعاون والتضامن .

الرجل القوي صاحب الاستقلال الشخصي والجرأة المدنية هو ، على مذهب سقراط ، من تغلب العقل فيه على الاميال والذي اذا تحقق لديه عمل نافع وغاية شريفة مشى نحوها بقدوم ثابتة دون ان يبالي بكثرة الموانع وازدحام المهالك .

المستر روزقلت ، رئيس جمهورية اميركا الشمالية سابقاً ، هو مثال مجسم في هذا الشأن ومن درس حياته ومناقشاته الاجتماعية الى الآن يدرك انه هو ذلك الرجل الذي يقول في كتابه (الحياة المتينة) : الامة لا يمكنها النجاح اذا لم تعود اولادها بذل الجهد . لا لاجتناب المصاعب ، بل لتعمها ، ولا للبحث عن الراحة فقط ، بل عن معرفة احراز الظفر من ايدي المشاكل والمخاطر . يجب على الرجل ان يفرح اذا ابقى بعمل الرجال ويسر اذا جراً على تحمل الصعوبات وكذا وجد وحافظ على نفسه وعلى من يلوذ به ، يجب على المرأة ان تكون مسدرة لبيتها ، رفيقة لزوجها ، عاقلة لا تجزع من كثرة الاولاد الاقوياء الاشداء حولها . فرجاءنا الى ابناء العلم والتعليم على الاقل ان يبذلوا الجهد في سبيل انشاء هذه الصفات العالية بين الناشئة الجديدة ومن يليها .

ويكفي ان يكون الافراد اقوياء اذا لم تنور افئدتهم بحسب المنفعة العامة وتعلق آمالهم وغاياتهم برفي الشعب الذي يرجعون اليه ؟ الرجل المتفرد لا قيمة له وما قيمة المرء الا بقيمة الهيئة الاجتماعية التي ينتسب اليها . وهل يتكر احد ان مبدأ الترقى والمدنية هو التعاون والاخلاص المتقابل بين الافراد ! ليست هي الجمعية التي تحمل الفرد ان يتجول بكل حرية وبظفر استعداده ولياقته اينما كان . اذاً يجب على كل فرد ان يحب امته ويسعى لارضائها واسعادها ، تلك الامة التي ضمتها الى حجرها وضممت له الحياة ثم درسته الى ان تيسر له استشارة مداركه واعماله . الرجل الذي يتبرأ من امته ويهمل امرها بعد ان اخذ غذاءه منها هي ولا شك ، غنية عنه وعن

امثاله ومن يقدر المنفعة العامة ويخدمها ولو كان ذلك يؤدى في بعض الاحيان الى ضرره الذاتي، فهو مبجل في جميع الازمنة في نظر امته ونظر الانسانية .
حكمت ائمة ظلماً على سقراط بشرب السم . فبدلاً من ان يركب العار ويفر من قانون امته رضي بحكم الجمهور وتجرع كأس الموت صابراً غير جازع فحب الامة وحسن المفادة بتنافعا الحسنة بجبها يجب ان ينير افئدتنا ؛ ويعلي مقاصدنا وما احسن ما كتب على نصب قبر احد اولئك الابطال الذين فادوا بارواحهم في حرب ترمو بيل حباً بامتهم : ايها العابر اذهب وخبر اسباطنا اننا لم نمت في هذا المكان الاحب باعلاء شرفها وتأييد حريتها ؛ وهل فعلت الاعراب اقل من ذلك وما السائق الذي دفع طارق بن زياد ان يحرق المراكب وينادي بعسكره : الموت او الظفر ؛ وما الذي ساق محمداً المنصور الوزير الاندلسي الشهير ان يتمدد على الطريق ويصد الفارين بنفسه اذا لم يكن حب الوظيفة وحب الامة والوطن .
الفضيلة التي تأمر الانسان ان يضع نفسه دون مبادئه العالية هي من اول الفضائل التي سطرها التاريخ على صفحاته . فلنجد ايها الاخوان ؛ لاكتسابها فان لنا باكتسابها الفوز العظيم

ترعة السويس وتجارة الشرق

عرف أن التجارة اول نشأتها لم تتجاوز البحر المتوسط بل حُصرت في سواحل فتيقية وبلاد الكلدان والعربية وغيرها من بلاد المشرق ايام توفرت لديها المعارف والعلوم واينعت فيها ثمار الصنائع والفنون حتى صارت محط رحال التجارة بين المشرق والمغرب وخزينة الاموال ومورد الخيرات والمكاسب يهرع اليها الفاتحون من كل فج وصبوب ليشاطروها الارباح العظيمة ويسلبوها الصنائع العجيبة ويتهاافت عليها الغزاة تهافت الفراش على السراج ولكنهم ما كانوا ينتفعون بذلك بل كان تهافتهم وبالاً عليهم في كل آن .

وبقيت شآبيب المراكب والخيرات تنهل على الشرقيين فتندفق عليهم سيول الثراء من سحاب الكد والجد الى ان نظر اليهم الزمان بعين ملوؤها الحسد فالهم الافرنج ان يكتشفوا طريقاً جديداً الى الهند قال الامر الى فاسكودي غاما ذلك الرجل العظيم الذي وجد طريقاً حول رأس الرجاء الصالح وحول بذلك المشروع